زيارة

قبل شروق شمس هذا اليوم بقليل ، جلس كمال خلف المائدة يرشف جرعات من الشاى من كوب وضع على صينية امامه فوق المائدة فى شرود وقد استولى عليه الشعور بالإحباط وهوان الشأن، فجأة ارتسمت على صفحة مخيلته صور تتابعت على ذهنه كما تتتابع الصور فى شريط فيلم سينمائى.

فقد غادر إبليس المحكمة وهو فى أشد حالة من الغيظ والضيق، إذ صدر الحكم ضده فى قضية اعتدائه على زميله بالضرب والسب، وقد وقعت عليه أقسى عقوبة فى التاريخ، وهى أن يعاون أول شخص يلتقى به بعد أن يغادر المحكمة، وأن يقوم بخدمته إلى أن يستغنى عنه.

وعلى الرغم من شعور إبليس بأنه لحقت به إهانة بالغة، غير أنه أقنع نفسه بضرورة أن يتعجل القيام بتنفيذ الحكم والانتهاء منه فى أقرب وقت ممكن.

لذا سار إبليس فى الشارع الخالى من المارة، والذى لم يكن يبدد الظلام الذى ران عليه فى هذه اللحظة سوى

أشعة قليلة لاتسمح برؤية المرئيات التى حوله بوضوح، وأخذ إبليس ينتقل من شارع إلى شارع كى يعثر على ضالته، بينما أخذت الشمس تلقى أشعتها إلى الكون فى دفقات تتتابع من حين إلى آخر، وتجعل الليل يجذب خيوطه السوداء ويخفيها تاركا المجال لضوء النهار لكى يزداد ويضفى تأثيره على الكون، ويكسب المرئيات رونقا ووضوحا وبهاء.

رأى إبليس باب منزل يفتح، ويخرج منه شخص فى مقتبل العمر، لم تتمكن أناقته ووسامته من أن تخفى الشحوب الذى كسا وجهه من أثر السهاد والانشغال وكثرة التفكير، هو كمال، فتبعه فى صمت وسكون، وحرص على ألا يفطن إلى أن أحدا يتبعه.

بعد فترة قصيرة، وسع إبليس من خطوه إلى أن أدرك كمال وسار بمحاذاته، وتحدث إلى كمال ببضع كلمات عبر فيها عن إعجابه به لنشاطه وذهابه إلى العمل مبكرا فى مثل هذا الجو القارص البرد، فأبدى كمال ضيقه وتبرمه، ووسع من خطوه مبتعدا عن إبليس دون أن ينبس ببنت شفة.

لحق إبليس بكمال مرة أخرى، وقال بصوت خافت:

- يبدو أنك لم يغمض لك جفن طوال الليلة الماضية، إننى أعرف أن الآنسة شيرين ابنة عميد المعهد تحبك

وأنك تحبها وأن أباها رفض أن تتزوجا.

شعر كمال بضيق شديد ،وأحس بدهشة بالغة، وتعجب فى نفسه، وألح على ذهنه السؤال:" كيف حصل هذا المتطفل على هذه المعلومات رغم أنه لم يفصح عنها لأحد؟"

قال إبليس بثقة واعتداد، وبلهجة ممتزجة بشئ من السخرية:

- أنت الآن تسأل نفسك.. كيف توصلت إلى هذه المعلومات؟ سأجيب عن سؤالك قائلا إننى لدى مصادرى الخاصة.

صمت لحظة تأمله خلالها. وأردف:

- أبو شيرين يريد أن يزوجها لابن أخيه الذى عاد من أمريكا حديثا بعد حصوله على الدكتوراة من إحدى الجامعات هناك... أبوها لايقيم وزنا لحبكما ولا لمواهبك ولا لطموحك.

لم يجب كمال على الرغم مما بدا على وجهه من ضيق وتبرم، واستطرد إبليس قائلا فى همس:

- جرب أن تتعامل معى ولن تندم.. سوف أعاونك على أن تحقق آمالك.

تفاقم شعور كمال بالغضب والضيق، وقال فى نبرات صوت امتزج بها شئ من الغضب والاحتداد:

- يجب أن تحقق آمالك أولا .. إن فاقد الشئ لايعطيه. الهموم تبدو على وجهك أكثر مما تبدو على وجهى.

وأسرع فى السير بأقصى سرعة ممكنة إلى أن وصل إلى موقف سيارات السرفيس، وركب الميكروباس، وهبط أمام معهد بحوث الصحراء.

ذهب كمال إلى حجرة مكتبه بالمعهد، وبعد أن وضع حقيبته على المكتب، تناول سلسلة مفاتيح من درج بالمكتب، وغادر الحجرة وسار فى ممر طويل، يقع على جانبيه أبواب عدد من المعامل والحجرات، وفتح باب معمل، ومر منه، وأغلق الباب خلفه.

وما أن نظر إلى داخل المعمل حتى بهت، وعلا وجهه شحوب جعله كاد يحاكى وجوه الموتى، وتسمر فى مكانه شاخصا بناظريه فى ذهول إلى الرجل المتطفل الذى قابله فى الطريق فى الصباح الباكر، وقد وقف ينظر ألى كمال بثقة واعتداد شديدين، وعيناه مفعمتان بالإكبار والاحترام.

بعد هنيهات، أفاق كمال من ذهوله، وتحدث إلى الرجل فى شبه استجواب، فأدرك أن الرجل لديه قدرات خارقة تؤهله لأن يصل إلى مايريد فى لمح البصر، وزاد من دهشة كمال أن الرجل سبقه فى الدخول إلى المعمل، مما يشير إلى أنه لديه مفتاح المعمل، فتساءل فى

نفسه:" كيف حصل على المفتاح؟" غير أن كمال نفض عن ذهنه فكرة أخرى قر عزمه على أن يقوم بتنفيذها فى الحال.

لذا، غادر كمال المعمل، وأغلق الباب، وسار فى الممر بضع خطوات، فشعر بيد قبضت على كتفه الأيمن من الخلف، وضغطت عليه بقوة هائلة كادت تحطم عظامه، وكأن صاحب هذه القبضة الحديدية أراد أن يمنعه من الاستمرار فى السير، فتوقف وهو يحس بألم فى كتفه.

تقدم الرجل خطوة، ووقف قبالة كمال، وفى نبرات صوت اقترنت بالهزء والسخرية. قال:

- تريد أن تبلغ رجال الأمن.. لن يفيدك هذا.

حملق كمال إلى وجه إبليس فى دهشة وذهول، بينما ترك إبليس كتف كمال، ولاح عليه السرور والغبطة وهو يتأمل منظر كمال الذى استغرق فى التفكير. ثم قال إبليس بنفس اللهجة المنطوية على الهزء والسخرية:

- أنت تريد أن تعرف كيف توصلت إلى معرفة ما تنتوى أن تفعل..لاتعجب ياسيدى.. هذا شأنى وليس شأنك. لكننى سأخبرك.

وروى إبليس لكمال ماحدث بالتفصيل.

زادت دهشة كمال وتعجب لأن إبليس سوف يقضى معه بضعة أيام، فشعر بقشعريرة تسرى فى بدنه من

أخمص قدميه إلى قمة رأسه، وتجمد لسانه داخل حلقه، ولم يستطع أن ينبس ببنت شفة.

عندئذ قطع إبليس الصمت بأن قال بلهجة ذات مغزى خاص:

- إننى خادم يرعى مصالحك بضعة أيام مقابل أن تعلمنى شيئا من فنون الحياة وطبائع البشر، وكيف أرتقى بتفكيرى ليناسب تفكير إنسان العصر الحالى.

تمالك كمال شيئا من رباطة جأشه. وقال:

- سوف تجد ماتريد لدى أساتذة كليات العلوم الإنسانية والآداب.

قال إبليس فى توسل:

- إننى شديد الإعجاب بك وبعبقريتك. أرجو ألا تحرمنى هذا الشرف.

قال كمال فى شئ من الاعتداد:

- إننى أعلم الطلاب خصائص الأراضى الصحراوية ولا أعلمهم أصول الفكر المعاصر.. إذن دعنى وشأنى.

قال إبليس فى نبرات صوت ينطوى على الإنكار:

- كفى تواضعا أيها العالم الفيلسوف. ها أنا أتعلم على يديك أول درس من دروس أساليب الحياة المعاصرة، هوكيف تفسد التجارب العلمية لزميلك.

غضب كمال، وتحدث فى دفاع المستميت لينفى عن نفسه هذا الاتهام، فانتظر إبليس إلى أن انتهى كمال

من حديثه، وأخبره بأن لديه قدرات خارقة لايتمتع بها غيره من البشر، وهاله أن كمال ينظر إليه باستهانة واستهزاء، فاجتاحه الشعور بأنه قد أهين إهانة بالغة، وأنه يجب عليه أن يمحو هذه الإهانة، فقال بثقة:

- أرجو أن تكلفنى بأداء بعض الأعمال على سبيل التجربة والاختبار.

لاح الارتياح على وجه كمال، وفكر لحظة. ثم قال:

- أوافق بشرط أن تبدى لى من قدراتك هذه، مايستحق أن يجعلنى أضحى بوقتى وجهدى من أجله.

- أوافق.

شعر إبليس بفرحة غامرة لأنه صار على قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفه، وظل واقفا فى مكانه فى صمت وترقب.

وبعد فترة قصيرة، كان كمال جالسا فى المعمل خلف منضدة فوقها حامل به بضع أنابيب ختبار بكل منها محلول بنفسجى اللون، وبيده اليمنى زجاجة بها محلول شفاف وضع قطرات منه بكل أنبوبة على الترتيب، وأعاد كل من الزجاجة وحامل الأنابيب إلى مكانه.

عندئذ صك سمعه تصفيق استحسان، فنظر ناحية الصوت، ووقع بصره على إبليس واقفا على بعد خطوات

خلفه ينظر إليه بإعجاب، فارتسمت على شفتيه ابتسامة تخابث، وسار متجها صوب الباب.

بعد قليل، وكان كمال جالسا وراء منضدة بحجرة مكتبه يقوم بإجراء إحدى التجارب، اهتزت المنضدة فجأة، واهتز كل مافوقها من أجهزة وأوانى زجاجية، وأخذت المحاليل والسوائل داخل هذه الأوانى تتمايل وتهتز كأنها ترقص على ذات الأنغام، ونتج عن تصادم بعضها بعضا أصوات مختلفة، بينما كان كمال يحملق إلى الأوانى والأجهزة فى ذهول، وقد توقف عقله عن التفكير.

بعد لحظات، تمكن كمال من أن يستعيد شيئا من قدرته على التفكير، وهداه تفكيره إلى أن السبب حدوث زلزال قوى، فنهض قائما من مكانه، وأراد أن يخرج ليستطلع الأمر، غير أنه أحس بدوار شديد جعله يشعر كأن الأرض تميد تحت قدميه، واهتز وتمايل وهو يسير متجها صوب الباب، وعندما شعر بأنه لن يستطيع أن يحفظ توازنه، ارتمى على أقرب مقعد، وجلس متهالكا، لكن المقعد سار على أرضية المعمل، ودار حول المنضدة، وأخذ كمال يطوح بيديه وقدميه فى الهواء، ويريد أن يمنع المقعد من الحركة، وعندما أخفق انتابته حالة من الخوف والرعب، وصاح فى استغاثة طالبا النجدة، ولكن دون جدوى.

ثم بلغ أذنى كمال صوت ضحكات هزء وسخرية، تردد صداها فى أنحاء المعمل، وأخذ يرتفع صوتها تدريجيا، فأدرك ان هذا الزائر الغريب يستعرض جزءا من قوته، فتسرب إلى نفسه شئ من الطمأنينة، ونظر إلى مصدر صوت الضحكات، وقال فى صوت واهن:

- كف عن هذا المزاح الثقيل أيها الزائر، فقد نجحت فى أول اختبار.

عندئذ، توقف المقعد عن السير، وظهر إبليس، ووقف قبالة كمال فى خيلاء وزهو ورجاه أن يكلفه بعمل، فأمره كمال بالتريث، وذهب إلى مكتبه، وجلس على المقعد، واستغرق فى التفكير.

نظر كمال إلى إبليس، فأتى إليه فى الحال، ووقف قبالته فى ترقب. فقال كمال:

- اذهب إلى حجرة عميد المعهد، وافتح أول درج على اليمين، ستجد ورقة مدونا بها أسماء من وقع عليهم الاختيار ليكونوا رؤساءا للأقسام، أريد أن تكتب اسمى بدلا من اسم من اختير رئيسا للقسم الذى أعمل به.

اختفى إبليس فى الحال، وعاد كمال إلى إجراء التجارب التى كان يقوم بإجرائها.

ثم ذهب د. شفيق إلى مكتب شئون العاملين لاستلام خطاب التعيين لوظيفة رئيس قسم، فهنأه الموظف على

المنصب الجديد، ورجاه أن يكتب إخلاء الطرف من عمله قبل انتهاء مواعيد العمل الرسمية، وأن يتسلم عمله الجديد صباح الغد.

تسلم د. شفيق خطاب التعيين بسرور بالغ، وما أن وقعت عيناه على الاسم حتى اربد وجهه، وثار ثورة عارمة من شدة الغضب، واتهم عميد المعهد بانه فضل عليه كمال عبد الستار، وعينه رئيسا للقسم بدلا منه، لأنه يريد أن يزوجه لابنته، وشكا الأمر إلى رئيس الجامعة، فرفع الشكوى إلى الجهات المسئولة لتتولى التحقيق فى الأمر.

وفى التحقيقات تمكن إبليس من تبرئة ساحة كمال، وأقنع أعضاء مجلس إدارة المعهد بانتخاب كمال رئيسا للقسم بسبب الأضرار النفسية والمادية التى سوف يصاب بها إذا عزل من هذا المنصب، فاستولى على كمال الشعور بالسرور، وشعر بأن الدنيا دانت له، وأنه يستطيع أن يحقق كل ما يصبو إليه.

وقد انتقلت عدوى ذلك إلى إبليس، وكانت فرحته أقوى لأنه أوشك على الانتهاء من تنفيذ حكم المحكمة، وتفاقمت فرحته عندما أبلغته الجهة المسئولة بقرار الإفراج عنه.

لذا، ما أن التقى بكمال حتى أخبره بأنه سيتركه ويذهب إلى ذويه، فغضب كمال أيما غضب، لكنه تمالك

السيطرة على أعصابه، وتوسل إليه أن يمكث بضعة أيام أخرى، فرفض إبليس.

عندئذ، قال كمال بتوسل:

- أرجو أن تحقق لى مطلبا أخيرا.. هو أن تحضر لى ثلاثة أبحاث من درج مكتب د. شفيق أشترك بها فى المؤتمر الدولى لبحوث الصحراء.

تجهم وجه إبليس فجأة. وقال باحتداد:

- كفى ما حصلت عليه.. مهمتى انتهت، وأريد أن أعود إلى أهلى وعشيرتى.

واختفى فى الحال تاركا كمال يحدق إلى الفراغ أمامه فى ضيق وذهول.

وأفاق كمال من شروده على رنين جرس الهاتف المحمول، وكان على مقعد قريب، وعندما تناول كمال الهاتف، ورد على المتحدث، بلغ أذنيه صوت زميله د. بهاء عند الطرف الآخر للخط يسأله عن الصحة والأحوال، ثم قال:

- رئيس القسم الجديد سأل عنك أمس فى الاجتماع.

- من؟

- د.شفيق عبد الهادى.